حارة الطيبين

حارة الطيبين

رواية

دار لطفي حداد

دار لطفي حداد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

دار لطفي حداد Email: lhadadrc@aol.com

إلى الناس الطيبين

الذين ما يزالون

يحتلّون أعماقي

ولحظاتي الصامتة

وذاكرة الحب

ملاحظة

بُدّلت أسماء الشخصيات كلها لاحترام الخصوصية
وأُثبت كثير من الحكايات كما هي لاحترام التاريخ

- ١ -

يقول بعض الناس في حارتنا إن الحياة والأحداث تدبير إلهي وعناية سماوية، ويقول آخرون إنها قضاء وقدر وكلّ شيء مكتوب على الجبين ومحدّد مسبقاً. . ويرى فريقٌ ثالث مصادفات عمياء وعبثية سخيفة في كل ما يجري. . وتظنّ فئة أخرى أننا نقرّر مصيرنا بأيدينا وما الحياة إلا قراراتنا القويّة الثابتة!!

ورغم أنني أنتمي تاريخياً إلى مجموعة معينة بتراث وتقاليد خاصة إلا أن وجودي في حارتنا. . حارة الطيبين، قد يكون حدثاً يمكن تفسيره بكل الطرق السابقة.

على كل حال ليس هذا هو المهم، إنما المهم أنني كنت هناك، وأنني أحببت أهل حارتنا. . وما أزال أفتقدهم بعد سنين من الرحيل. وما فتأت صورهم وحكاياهم هنا والآن حيّة ومشرقة. . لذلك أشعر أنني لست بعيداً عنهم، ولست غريباً. . وأنني لم أرحل.

❊ ❊ ❊

ـ ٢ ـ

الحياة في حارتنا صاخبة مزدحمة، والناس يعرفون كل شيء عن بعضهم، ولشدة الترابط والاندماج، أشعر أنهم بحاجة لبعض الخصوصية والانفراد ليخبروا قصصهم.. وربما يكون هذا الوقت هو الوحيد الذي يستطيعون أن يكونوا فيه بمفردهم.

❋ ❋ ❋

ـ ٣ ـ

لأنني أحبهم جميعهم، حتى غير الطيبين فيهم، وأعرف أنهم يركضون وراء ضعفهم وليس لؤمهم، خلف حاجاتهم وليس خير الجميع.. لذلك أتركهم يقولون أعمق ما فيهم ولو كان خبيثاً ولئيماً ونرجسيّاً..

في النهاية أنا ابن حارتنا، وواحد من كل هؤلاء.. وربما قد ورثت شيئاً من جميعهم.. هكذا هي الحياة..

❋ ❋ ❋

ـ ٤ ـ

حارتنا صغيرة بسيطة، لكنها لوحة رائعة، ولأن لوحات الحياة الجميلة كثيرة ومتباينة، فإنني أختصر لوحة حارتنا بهذا الخيال البسيط: بيت عربي، نافورة الماء، شجرة النارنج، نرجيلة المساء ودخانها، وجوه طيبة

سمراء، وقمر ليالي الصيف الفضي المنتثر..

❋ ❋ ❋

ـ ٥ ـ

كنت اعتدت أن أجلس مساءً في مقهى الحارة أتكلم مع الكبار والصغار وأستمع إليهم.. وأحياناً كنت أزورهم في بيوتهم، أو ألتقيهم في الشارع فنتوقف ونتحدث..

وفي جميع الأحوال كنت أستمتع من كل قلبي بالوقت الذي أقضيه معهم.. ولأنني منذ البدء أحببتهم أحراراً وصادقين وطيبين.. لذلك أنسحب الآن بسرعة لأتركهم يروون حكاياهم، وأحتجب لأعطيهم الفرصة ليقولوا ما يشاؤون كما هو بحرّية!

❋ ❋ ❋

الفصل الأول

شجرة النارنـج

لُبنى

ـ ١ ـ

رجلٌ صارم خبيث بثياب بيضاء ونظارات صغيرة مستندة على أسفل أنفه الكبير، يتجنب أن ينظر في عينيّ مباشرة.. يطلب من ممرضته المسنّة البدينة عاهرة الزينة والتقاسيم أن تمسك بيديّ كي لا أتحرك بينما هو يخيط عذريتي!! آه كم هو مؤلم أن يتحول الجسد إلى مسرح للآخرين.. أحدهم يفضّ والآخر يخيط.. وأنا ماذا؟!

أتفرج على هذا العالم السخيف حولي.. بلا مبالاة، وبسخرية وغصة جارحة.. وإنني لم أقتنع بما أعمل الآن.. لكن رانيا صممت أن هذا أفضل لمستقبلي.. وأنني يجب أن أعود إلى الطريق القويم!!

* * *

ـ ٢ ـ

أعتقد أن لا أحد يفهمني.. منذ كنت صغيرة لا أحد يصغي إليّ.. فأنا أحب أن أؤذي نفسي.. أحب أن

أموت.. أمي لم تعلمني أن أحب جسمي.. أن أحب الحياة!!

كانت تضربني دائماً وتقول لي: «إنني أشبه البقرة الضاحكة».. لم يكن لدي صديقات!!.. كن ينفرن من السخرية التي تلحق بهنّ إذا مشين بقربي.

* * *

ـ ٣ ـ

كان هو أول من لمس نهديّ الكبيرين!!.. ورغم أنه لم يقبّلني من شفتيّ إلا أنه كان يشعر بلذة في كل لحظاته معي!!

كنت أتفرج عليه.. أنا لا أعيش أية لحظة بعمقها.. أنا لا أحب أحداً لأنني لم أتعلم الحب!!

كان يعرّيني قطعة قطعة.. ويلمس جسمي ويتذوقه بلهفة وشغف، وكنت سعيدة لأنني شعرت للمرة الأولى في حياتي بأن أحداً يمكن أن يستمتع بشيء جميل فيّ!! بأنني يمكن أن أكون ألذّ من «بقرة ضاحكة»...

توجعت قليلاً حين اخترقني بهمجية وجوع.. كان جائعاً لامرأة، ممتلئاً بكبت السنين!!

لم يكن جميلاً هو أيضاً!! كان منبوذاً ومهمشاً.. والتقى عَطَشانا في غرفة قذرة وفراش ممدد على الأرض

وضوء شاحب في الزاوية..

* * *

ـ ٤ ـ

تركني ومضى وأنا ما أزال خارج لحظتي.. وسخرت منه.. هو تافه كالآخرين، جائع مثلهم، يبحث عن إشباع فراغه وحيداً.. يقف بعد قليل لدى جسد آخر.. يقضمه قليلاً ليتابع مسيرة جوعه الأبدي..

لكن برغم كل شيء.. فإنه بقي ملكي للحظات.. كنت أميرة لثوانٍ معدودات.. وثمن عذريتي هو لحظة حب طائشة كهذا الزمن..

* * *

ـ ٥ ـ

قال لي الطبيب محدقاً في أوراقه، متجنباً أن ينظر في عيني، بعد أن انتهى من سرقة لحظتي الوحيدة الطائشة المليئة بذكرى حزينة سعيدة:

ـ أرجو أن تنتبهي لنفسك، ولا تعودي إلى هنا إلا من أجل ولادة طفل..

ابتسمت.. دغدغت أحلامي لحظة حب جديدة، تأتي من آخر يمتلكني زمناً خارج الزمن، ولا يعرف عن الأمير السابق أخبار مغامرته.. لأن باب القصر عاد

موصداً!!

* * *

ـ ٦ ـ

وصلت إلى الحارة.. حاولت أن أراها بنظرة جديدة.. لكن شيئاً لم يتغيّر، ولم يحبّني أحد، فدخلت في عزلتي من جديد، ونسيت الأحلام.. ورحت أبحث في الواقع عن رجل جائع لامرأةٍ، ممتلئ بكبت السنين، لأتوجع قليلاً من همجيته وأصير أميرة لثوانٍ معدودات.

* * *

أبو جبران

ـ ١ ـ

أغبياء.. أغبياء..

لم يفهموا بعد شيئاً عن الحياة..

حماري الواقف هنا في فسحة الدار ينظر إليّ، ويهزّ رأسه!!

إنه يوافقني على أنهم أغبياء!

الولد العاشر سيكون بنتاً، ويأتي رزقها معها..

لماذا يقلقون؟!

ما نزال نأكل الخبز والزيتون والزعتر..

حين كنت صغيراً كنا نقتسم الأرغفة الأربعة كل يوم فيما بيننا نحن الأخوة التسعة!! ولأنني كنت أصغرهم، كان نصيبي دائماً أقل.. سأبزّ أبي بعدد الأولاد وسأملأ الحارة بصياحهم وصخبهم..

لم تكن أمي تصغي إلي فهي منشغلة عني بهموم كثيرة.. وأبي لم نكن نراه إلا أيام الأعياد.. على كل

حال كبرنا وملأنا الدنيا عنفواناً!!

* * *

ـ ٢ ـ

قلت للخوري بالأمس:

ـ الدين سخافة كبرى!! فهل لديك بضاعة أخرى..

تجهم وجهه وكأنه هو الذي اخترع الدين، وراح يصبّ حمم غيظه ونار مواعظه على رأسي الأشيب..

لو كان قد عرف الحياة على حقيقتها لتخلّى عن كلام الكتب هذا.. هذه هي مملكتي.. امرأتي وتسعة أولاد كسنابل الحقول وحمار طيب وشجرة ليمون.. وسأبقى أنجب الأطفال حتى تشيخ أرضي الطيبة!!

ما أجمل أن نصنع الرغيف والحلم والمطر..

وأقول لكم:

حين تأتي الطفلة الجديدة سأسميها «فرح» لتعلمني الفرح في زمني الحزين!!

* * *

ـ ٣ ـ

كنت قرب باب البيت أهمُّ بالدخول حين سمعت أم جبران تقول لجارتها:

ـ لا أطفال بعد اليوم.. صرت عقيمة للأبد!

الطب تقدّم جداً يا أم أحمد.. وقد ربط الطبيب لي بوقيّ بالأمس ولن أحبل من جديد!!

وسمعت ضحكات المرأتين.. فدمعت عيناي.. واشتعل جنوني، واحترقت كلماتي..

جلست على حافة الدرج.. وصرخت في أعماقي:

ـ آه منك يا أم جبران.. لقد قتلتني!!

ألم تعلمي أنك أخذت مني حلمي الوحيد؟!

أن أبقى في ذريتي للأبد.. من أنا في هذه الحياة..

الوطن والتاريخ والحارة سينسوني عما قريب..

ولن يبقى لي إلا سنابل الحقول، وفخري بأنني استطعت أن أبزّ أبي!.. لماذا أخذت مني حلمي الوحيد؟!

* * *

أم سمير

ـ ١ ـ

كان في الرابعة من عمره حين صدمته سيارة أمام البيت.. هل غارت الشمس من ذهب شعره الصافي.. أم انتقم الربيع من اخضرار عينيه العشبيتين لأنهما أنقى وأعمق!!

ومنذ ذلك اليوم أغني مع فيروز عن شادي «اللي بيلعب على الثلج»..

الزمن توقف عند تلك الساعة، وكل ما أعيشه هو تكرار مَرَضيّ لأيامي النازفة..

وأنا ما أزال أم سمير!!

ابنتاي تكبران كشجرة الليمون في ساحة داري.. ابنتاي سلوى وابتسام.. حمامتان وادعتان ترفرفان على شباكي المغلق.. لأنني ما أزال أم سمير.. ولا وجود لأحد آخر غيره!

* * *

ـ ٢ ـ

بعد عشرين عاماً.. ما يزال سمير كل شيء..

صورته لا تفارقني، هل تعرفون ما يعني موت طفل لأمه؟! هو مقلة عيني.. لا شيء يعوضني ابتسامته. وجهه المدور كالقمر.. شعره الأشقر كسنابل الحقول.. ربيع عينيه الدائم.. مات زوجي منذ سنين، وتزوجت ابنتاي.. وأنا وحيدة الآن في بيتي.. عفواً أنا لست وحيدة لأن سمير يعيش معي كل لحظاتي.

* * *

ـ ٣ ـ

حين أرى الأستاذ عيسى أتخيل سمير قد كبر وصار شاباً ذكياً هادئاً طيباً مثله.. وفي الحقيقة منذ التقيته رأيت فيه حلمي الصغير يكبر!!

دعوته مرات عديدة ليأكل عندي.. وتقبّل دعوتي ببشاشة وطيبة قلب!!.. قلت له أنت مثل ابني وأريدك أن تأتي دائماً وتطلب مني ما تشتهي من طعام.. اعتبرني أمّك..

ابتسم الأستاذ عيسى وتشكّرني بعمق.. وصار يتردد كل أسبوع مرة أو مرتين لزيارتي.

يعجبني اهتمامه بالأطفال وتدريسه.. لقد تغير

الأولاد في حارتنا بعد مجيئه وهم يحبونه ويحترمونه..

* * *

ـ ٤ ـ

جاء الأستاذ عيسى اليوم مطرق الرأس بعينين كسيرتين فسألته ما الخبر..

قال لي بصوت مرتعش:

ـ علي أن أذهب إلى حارة أخرى.. نقلتني المديرية إلى مدرسة جديدة بحاجة لأساتذة!!

انقبض قلبي.. قلت له برجاء:

ـ نحن نحبك.. ابقَ معنا.. لقد تغيرت حارتنا كثيراً في السنين الخمس الماضية!!

وأيضاً.. توقفت عن الكلام للحظات،

قال مستغرباً:

ـ وماذا يا أم سمير؟! ماذا تريدين أن تقولي؟!

أدركت قائلة بصوت مختنق:

ـ أعني أننا تعوّدنا على حضورك.. وبالنسبة لي أنت مثل ابني..

أجهشت بالبكاء.. لم أستطع أن أكمل كلامي.. اختنقت تماماً.. تخيلت من جديد السيارة السوداء الكبيرة تضرب سمير.. فيهوي على الأرض.. أركض

نحوه بجنون.. أحمله بين يديّ ملطخاً بدمائه.. جسده مرتخ كقشرة تفاح مرمية.. أصمت.. لا أستطيع أن أعولَ.. تختنق الدموع في حلقي.. أريد أن أولول.. أسير به إلى ساحة دارنا.. يتجمع الناس حولي!! يحاولون أن يهدئوني..

مرت خمس وعشرون سنة لم أنم فيها بشكل طبيعي متواصل.. كل يوم أذكره.. أشعر بضيق في صدري.. أصير ألهث.. شخّص الأطباء ذلك ربواً قصبياً!! وأعطوني أدوية لتوسيع القصبات..

آه.. لا أحد يعرف قلب الأم..

* * *

ـ ٥ ـ

ربّت الأستاذ عيسى على كتفي.. وقال لي بعد أن أصغى لحكايتي:

ـ أعتقد أنه يجب أن تعبّري أكثر.. اذرفي الدموع للخارج.. لا تحبسي شيئاً حاولي أن تتنفسي بعمق، أنا لست طبيباً لكنني أعتقد أنك بحاجة إلى موسعات لرئتيك من نوع آخر لا يعرفه الأطباء.. تعالي لنتمشى ونتكلم عن الحياة..

* * *

ـ ٦ ـ

قضيت مع ابني.. مع الأستاذ عيسى وقتاً طويلاً نتكلم فيه عن كل شيء.. كان المساء ناعماً والسماء رائقة كما لم تكن!! كان يسمعني.. ويبتسم.. وكنت أتكلم وأتكلم حتى لم يبقَ شيء لم أخبره إياه!! لم يبق شيء، وفي النهاية عدنا إلى الحارة وأوصلني إلى بيتي وودّعني.. قبلته على جبينه وتمنيت له التوفيق في حارته الجديدة.. ووعدني أن يزورني كلما سنحت الفرصة..

❋ ❋ ❋

ـ ٧ ـ

نسيت أن آخذ أدويتي.. كنت مرتاحة جداً.. ونمت!!

هل تصدقون؟! للمرة الأولى بعد خمس وعشرين سنة أنام الليل كله..

استيقظت صباحاً.. كانت العصافير تنقر شباكي.. والشمس تتراقص وسط غرفتي!!

خرجت إلى ساحة الدار.. شممت عطر الياسمين والنعناع.. حضرت فنجان قهوة وجلست قرب بركة الماء.. كان سمير يعرّش على الحيطان ويتهادى مع النسيم وعادت سلوى وابتسام تلعبان معه.. تنفست

بعمق.. وابتسمت من جديد.. وعرفت أنني قد شفيت.

❋ ❋ ❋

أم عبود الختيارة

ـ ١ ـ

نظرت في المرآة اليوم.. وضحكت..

لقد تغيّرت حقاً!!

التجاعيد علت وجهي، واشتعل الرأس شيباً، وغارت عيناي في تجويفها، وتهدّل فمي بعد أن فقدت أسناني..

رفعت ذراعيّ إلى الأمام والأعلى فرأيت جلدهما الضامر، وعروقهما المتشابكة كأغصان غابة جرّدها الشتاء من أوراقها!!

ضحكت وقلت لأبو عبود:

ـ يظهر أننا نصبح كاريكاتور إنسان بعد السبعين!!

قام أبو عبود عن مقعده في زاوية الغرفة ومشى على مهل إليّ، ونظر في المرآة..

تأمّل عينيه الخضراوين الذابلتين ووجهه الأبيض الشاحب.. فضحك مثلي، وتأبّط ذراعي، وقادني إلى الخارج.. قائلاً:

ـ الجو ربيعي يجدّد الشباب.. تعالي نجلس ها هنا!!

نظرت إلى ظهره المحني كالقوس ونظرته العميقة كالسهم وقلت بسخرية:

ـ ما انحنى قد انحنى يا أبا عبود.. هيهات أن يعود الشباب!!

* * *

جلسنا أمام الباب على كرسيين من القش فوقهما مخدات ناعمة على امتدادهما، وقلت له بدلال:

ـ هل تذكر الحارة حين كنا صغيرين!! كنت تلاحقني من البيت إلى المدرسة وبالعكس.. هل تذكر أبي!! ابتسم أبو عبود.. وأدركت قائلة:

ـ لقد تغيّرت الدنيا حقاً..

لم تكن كل هذه البيوت هنا!! جئنا الحارة خاوية.. كان هناك ثلاث عائلات في بيوت عربية تتوسطها ساحات ونوافير ماء وأشجار ليمون وبرتقال وخوخ ودراق ونارنج..!! وكل ما حولنا بساتين وحقول!!

هزّ أبو عبود رأسه متحسّراً، وقال بصوت منكسر:

ـ لم يبقَ غيرنا يا أم عبود..

الجيل الجديد بدّل كل شيء.. لم نعد نرى إلاّ البنايات الحجرية الباردة كالموت، والشوارع المزدحمة التي تفوح منها الروائح الخانقة!!.. واقتلعوا كل الأشجار.. وطمروا البساتين، وخربوا البيوت العربية الجميلة ليقيموا أبنية كالمقابر..

صرنا بقايا من التاريخ يا أم عبود.. وشجرة النارنج التي شاخت معنا ما تزال تقاوم وحدها في هذه الحارة اليابسة الصفراء.. وأعرف أنهم ينتظروننا حتى نموت فيدفنوها قربنا.. ضحكتُ من جديد..

لم يعرف أبو عبود لماذا أضحك؟!

قلت له:

ـ ولّى زماننا، وآن للجيل الجديد أن يعيش تجاربه.. أضحك على منظرنا جالسين كحاجز أمام اجتياح المدنيّة كما تقول!! أليس هذا ما يسمونها!!

هزّ أبو عبود رأسه وقال لي:

ـ معك حق.. هذه هي المدنيّة والحضارة الحديثة!! لكنني ما زلت أؤمن بالأشجار والعصافير، والفسحات والشبابيك الكبيرة، وضوء الشمس المنتشر، والبطيخ الأحمر يتبرّد في بركة الماء عند المساء، والنافورة والنباتات والورود حولها!!

هذه هي الحضارة يا أم عبود..

حين يكون الإنسان مرتاح القلب والفكر..

ليس المهم أن نكون أغنياء أو فقراء.. وليس المهم أن نكون ضعفاء أو أقوياء..

أعتقد أن المهم المهم هو أن نكون سعداء..

أن نكون قادرين على الحب والتنفس بحرية والعطاء.. قضينا العمر نحب أولادنا وجيراننا.. أنت تشربين القهوة مع النساء في الصباح وتضحكن وتثرثرن.. وأنا أدخن النرجيلة مع الرجال في الحارة ونلعب الورق أو الطاولة!! كنا مرتاحين في الحياة.. لا نركض اليوم كله من أجل حفنة مال لا نجد الوقت لصرفها..

كنا نستطيع أن نعطي الكثير لكل من يطلب.. أن نشارك بالقليل الذي عندنا مع من يحتاج..

أما الآن.. أما الآن.. ألا ترين كيف يعيش أولادك في هذه البيوت معلّبين مختنقين، ليس لديهم الوقت حتى لأهلهم..

أما عن الجيران.. والجيل الجديد الضائع.. فحدّث ولا حرج. نظرتُ في وجهه الطيّب المخذول.. وضغطت على يديه بيدي وقلت له بدلال كأيام الصبا:

ـ هل ما زلت تحبني؟! هذا هو المهم بالنسبة لي.. هل ما زلت تحبني؟!

ابتسم أبو عبود ببراءة طفولية أخذتني إلى أكثر من

خمسين سنة إلى الوراء.. وقال كلمته المشهورة:

ـ أم عبود.. أنت القلب والعين!!

قلت له مثبّتة عيني على عينيه:

ـ وأنت الروح..

لا تزعج نفسك..

كل جيل له حياته وحكمته وحضارته.. ونحن قد عشنا نصيبنا من ذلك.. دعهم لشأنهم.. ودعنا نتفرّج على الحياة وشجرة النارنج ونرجيلة المساء كيف تستقبل الأجيال الجديدة..

المهم أنك ما زلت تحبني.. في النهاية لن يبقى إلا الحب!

* * *

صطوف

ـ ١ ـ

استيقظت هذا الصبح متيبِّس الجسم.. والشرطي الذي ضربني الأسبوع الماضي قد ظهر لي في المنام ثانية وأعاد لطماته من جديد.. ويبدو أن هذا المكان لا يناسب الشتاء القادم.. إنه بارد جداً..

آه، ابتدأ البرد مبكراً هذه السنة، ولم تعد «الكرتونات» تفي بالغرض.. يجب أن أبحث عن مكان آخر.

خرجت من القبو الذي أسكنه مع «كيمو» و«عبدو» و«مروان»، واتجهنا نحو موقف الباصات.

هناك نلتقي كل يوم بأصدقائنا بائعي الكعك.. أنا لا أحب هذا النوع من العمل.. جرّبته شهرين ولم أربح ما يكفيني للتدخين والسينما، والمغامرات الأخرى..

أحب أن أمسح السيارات.. وأحياناً زجاج السيارات أمام إشارات المرور، ومواقف الباصات.. كثيرون يعطفون عليّ ويعطونني أيضاً بعض الشيكولاته

والحلويات!! وأنا أبقى حراً بهذه الطريقة.. أترك متى أشاء وأعود حين أشتاق للتسلية مع الناس. بعضهم لئيم حقاً.. البارحة بصق أحد الشبان في وجهي وأنا أمسح سيارته الفخمة!! لكنني لم أسكت له فبصقت بوجهه وهربت..

عادة أتجنّب الرجال، وأبحث عن السيدات.. أقول لهن عندما يسألنني عن أهلي:

ـ أمي ماتت وأبي في السجن..

فتدمع عيونهُنّ ويقدّمن لي مالاً وطعاماً.. وأنتقل إلى السيارة الأخرى وأكذب من جديد!!

كيف أستطيع أن أقول لهم إن أمي تركت البيت، وهربت مع أخي الصغير إلى رجل آخر.. وإن أبي الذي كان يضربها كل يوم صار يفرغ غضبه عليّ حتى هربت!!

* * *

ـ ٢ ـ

الليلة الأولى هي الأصعب.. لم أكن أعرف أين أمضي.. قادتني قدماي إلى موقف الباصات، وهناك تحنّن عليّ سائق حين أخبرته قصتي وأنني ذاهب إلى زيارة جدتي، فأخذني من دمشق إلى حلب.. وحين وصلنا أراد أن يأخذني إلى بيته!! لكنني خفت منه

وهربت. لم أكن أعرف حارة أو أحداً في حلب، ومشيت هناك طويلاً.. طويلاً..

كنت أشعر بالجوع والتعب، وحين اقترب الليل، شعرت بالخوف والضياع أيضاً!!

لا أعرف أين سأنام، وبماذا سأشبع جوعي..؟!

* * *

ـ ٣ ـ

نمت في الليلة الأولى في حديقة صغيرة، ثم بدأت أتعرّف على أولاد مثلي يبيعون الكعك، أو ينظفون الأحذية أو يمسحون زجاج السيارات.

كان «كيمو» أول أصدقائي الجدد.. كان مثلي في العاشرة تقريباً لكن لديه خبرة طويلة، فهو قد ترك بيت أهله منذ أكثر من سنة.. وبقي في «سجن الأحداث» ثلاثة أشهر، ثم هرب بعدها. وحين لقيني أخذني إلى مقرهم في إحدى البنايات المهجورة في باب الفرج.. كنا نجتمع مساءً لنذهب إلى السينما. وكان كيمو زعيمنا المسؤول عن حمايتنا من المشردين الكبار والذين ـ كما فهمت بعدئذ ـ يبحثون عنا ليستغلونا مادياً أو يتسلّوا بأجسامنا..

* * *

ـ ٤ ـ

إذن وجدت أصدقاء كثيرين، وفضلت أن أمسح زجاج السيارات عن بيع الكعك أو تنظيف الأحذية.. وها أنا ذا أعيش في الشارع لأشهر طويلة وصارت الحارة القريبة حارتي.. لكن الشتاء قد اقترب، ويجب أن أبحث مع كيمو عن مكان أفضل..

قال لي كيمو بالأمس:

ـ إنني أفضّل السجن في الشتاء، ويكفيني أن أختلق أي شجار أو أخبر أي شرطي أنني أنام في الشارع حتى يأخذوني إلى هناك.. فأمكث دافئاً حتى يأتي الربيع فأهرب من جديد..

لكنني لم أحب الفكرة.. إنني أحب الحرية وأكره السجن!!

❊ ❊ ❊

ـ ٥ ـ

البرد قارس!!

سرقت شفرات حلاقة من إحدى الدكاكين، فركض صاحبها ورائي حتى أمسكني وضربني ثم رآني شرطي السير فضربني أيضاً.. ابن الحرام لماذا يضربني؟.. عمله هو السيارات وليس أنا!!

كان اليوم ممطراً ولم أستطع أن أعمل.. يا إلهي إنني جائع حقاً..

عدت مبكراً إلى مقرّنا قبل الآخرين.. تقوقعت على نفسي.. البرد والجوع لا يرحمان هذا المساء.. تجمّعت أكثر في الزاوية وغطيت جسمي بالكرتونات ورحت أفكر جدّياً بشجار أو سرقة غداً لأدخل السجن..

الدفء والطعام الآن أهم من الحرية!!

❊ ❊ ❊